حادثة فلســـطين

للأستاذ على الطنطاوى

... لئن كانت حادثة الحبشة فضيحة القرن العشرين ، فان حادثة فلسطين — إن تمت — فضيحة الدهر ، وعار يلحق كل من يقول : أنا انسان ...

بيد أن الحبشة إن غلبت بملايينها وسلاحها وجيوشها ، فان هذا الشعب الأعزل الذى لا يبلغ المليون الواحد لن يغلب على أرضه أبداً ، لأن وراءه سبعين مليوناً من العرب ، إن وراءه أربعمائة مليون من المسلمين ، إن وراءه ألف معركة منها أجنادين واليرموك وحطين ، إن وراءه القرآن الذى يقول عن اليهود : « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » صدق الله العظيم ؛ وكذبوا ... إن الذليل لا يعز ، والمسكين لا يملك ، والمغضوب عليه لا يفلح أبدا !

* * *

إن حادثة فلسطين ، لو تدبرها العقل ، وفهمها على وجهها لما رآها إلا ... « جريمة » : أبطالها طائفة من اللصوص ، وشرذمة من الحرّاس ، لصوص يتسوّرون الدار ليطردوا صاحبها ، ويحتلوها ويشرّدوا أهلها ، وحراس يعينون اللص على المالك وينصرون على الحق الباطل ...

ولكنّ الجريمة لن تتمّ : إن الأسد فى العرين ، وربّ الدار يعرف كيف يحمى الدار ... فيا أحفاد كعب بن الأشرف ، وسلاّم بن أبى الحُقيق ، وعصماء وأبى عَفَك ، نحن أبناء محمد بن سلمة ، وعبدالله بن عتيك ، وعُمَير بن عدىّ ، وسالم بن عمير ... فاذا أغنى عن أجدادكم — إذا هم كانوا أجدادكم حقاً — إذا أغنى عنهم ما لهم ، أو دفعت عنهم حصونهم ، أو نفعهم حلفاؤهم ، وما حزّبوا علينا من أحزاب ، أغنى ذلك عنكم :

« هوَ الذى أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا منْ دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم من اللهِ . فَأَتَاهُمُ اللهُ منْ حيثُ لم يحتسِبوا وَقَذَفَ فى قلوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبونَ بُيُوتَهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . فاعْتَبِروا يا أُولى الأبْصار »

* * *

ولئن اشتدت اليوم الصيبة وعظم الخطب ، فقد كانا يومئذ أشد وأعظم ، يوم قامت أوربة كلها على قدم وساق ، ثم سارت الينا بقضها وقضيضها ، يحدوها التعصب الأعمى ، وتسوقها عصا البغضاء والحقد والعداوة الدينية . فأفسدت البلاد وعاثت فى الحرم ، حتى إذا ظنت أنها قد ملكت وتمكنت ، وبنت فأسست ، وباضت وفرّخت : جاءها رجل واحد فحطم جيوشها فى حطين ، ثم ردّهم على أعقابهم خاسرين ، ثم أخرجهم منها مذءومين مدحورين

أفعيينا بأوربة كلها ، وعجزنا عنها حتى نعجز عن حفنة من شذّاذ الآفاق ونفايات الأمم وعباد الدرهم والدينار ؟ أم قد جفّ الدم الذى روّى عروق صلاح الدين ، وماتت الأمة التى

عليه ؛ وهنا نستطيع أن نقول إن الوطن القومى الحديث كان وليد الخصومة السامية (حركة العداء ضد اليهود) أكثر من أى عامل آخر ؛ وهذا أيضاً عامل مصطنع فى بنائه ؛ وإذا كان الوطن القومى قد أحرز فى فلسطين شيئاً من النجاح والتوسع من حيث الاحتشاد والاستثمار الاقتصادى ، فذلك يرجع قبل كل شىء إلى الأموال الطائلة التى تستثمرها الرأسمالية اليهودية ؛ والرأسمالية لا تعرف وطناً ولا ديناً ، ولا تعرف إلا الفوائد والمغانم المادية

والخلاصة أن الوطن القومى اليهودى يقوم على عوامل وأسس مصطنعة يكشف الزمن عن ضعفها شيئا فشيئا ؛ والزمن وحده كفيل بأن يبين لليهودية أن مشروع الوطن القومى والدولة اليهودية إنما هو حلم عظيم جاشت به أذهان بعض المتعصبين من أقطاب اليهودية ومفكريها ، وأنه لا يمكن أن يعتبر بوضعه الحاضر أكثر من مشروع اقتصادى تؤيده الحراب البريطانية ، فكل ما يحرزه من نجاح أو بصيبه من فشل يرجع إلى قواعد الاقتصاد العادية دون غيرها ؛ وما جامعة الدين التى تستظل بها اليهودية ، إلا طلاء السياسة ، وهى أضعف من أن تقيم فى عصرنا دولة أو وطنا

مؤرخ

أخرجته ، وعقمت النساء فلا يلدن شبيهه ؟ إن كل مسلم اليوم في فلسطين صلاحُ الدين ، وكل بقعة فيها حطين !

* * *

ضربت عليهم الذلة والسكنة : فالذهب في صناديقهم والنظام جمعياتهم ، والرىّ والخصب في أرضهم ، والسلاح في أيديهم ، والانكليز من ورائهم ، ثم لا يثبتون ساعة واحدة لهؤلاء العزل الفقراء . . . ولا يقدرون أن يقفوا في وجوههم ، ويرتجفون إذا سمعوا ذكر أسمائهم : « إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » أهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يمشوا في الطرقات وحراب انكلترا تحميهم ، يستطيعون بعدُ أن يمسوا سدنة المسجد الأقصى وسادة فلسطين ، ويملكوها — وحدهم — رغم أنف المسلمين أجمعين ؟ ولو نفخ عليهم المسلمون أربعمائة مليون نفخة لطيروهم ، ولو مالوا عليهم لطحنوهم ، ولو بصقوا عليهم لأغرقوهم ، ولو صرخوا فيهم لقتلوهم ؟

أهؤلاء الذين ما عرفهم التاريخ إلا مغلوبين ، يتحرشون بمن لم يعرفهم التاريخ إلا غالبين منصورين ، ومن حكموا الدنيا فكانوا نعم الحاكمين ، وعلموا العالم فكانوا خير معلمين ؟

* * *

إن معهم وعداً ، وإن معنا لوعداً : معهم وعد بلفور . ومعنا وعد الله : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا »

ولكنّ الله يمتحن إيماننا وصبرنا واتحادنا وتعاوننا ، وينظر أنجاهد في سبيله بأموالنا وأنفسنا ، وننصر إخواننا ونكون في تواددنا وتراحمنا كالجسد الواحد ، إذا تألم عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر ، أم قد فرقت بيننا السياسة ، وباعدت بيننا الغير ، ومزقتنا الأهواء والمطامع ، فأمسينا ننام في القاهرة ودمشق وبغداد على فرش الريش والديباج ، وإخواننا على شعفات جبال نابلس والقدس لا يغمض لهم جفن ، ونأكل الشواء والحلواء وإخواننا هناك قد لا يجدون ما يقوم بأودهم من الخبز ، ونبذر المال نقذف به إلى أوروبة ثمناً لهنات هينات ، فيصنعون منه مدافع تحصد إخواننا حصداً ، وبنادق تمزق صدورهم تمزيقاً ، وإخواننا لا يجدون ثمن الحاجات الضروريات ، ونلهو ونلعب آمنين مطمئنين ، وإخواننا في فلسطين قائمون على حد السيف ، بين النار والحديد ؟

فيا إخواننا في مصر والشام والعراق والحجاز والمغرب ، ويا إخواننا في الهند والصين وأينما بلغت مقالتي هذه . . .

إن الله جل وعز يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » فهل أنتم مؤمنون مسلمون بجوارحكم وقلوبكم ، مخلصون لله في أسراركم وأعلانكم ؟ أم أنتم مسلمون بالنسب والاسم وسجل الدولة ، لا تعرفون إلا أنفسكم ، ولا تبالون إلا بذاتكم ، ولا تنظرون إلى أبعد من أنوفكم ؟

إذا كنتم مسلمين حقاً ، مؤمنين صدقاً ، تريدون أن ينصركم الله فانصروا فلسطين ما استطعتم ، انزعوا المال من أفواه عيالكم ، وأعناق بناتكم ، لتشتروا به حياة إخوانكم في فلسطين ، اسهروا الليالي تتسقطون أخبارها ، وتعلمون علمها ، أمسكوا عن لهوكم وأفراحكم فلا تنفرج لكم سنّ حتى تنفرج أزمتها ، اجعلوا قضية فلسطين ، قضية كل واحد منكم . . .

أما أنتم يا إخواننا في فلسطين :

فاصبروا وصابروا « وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مؤمنين . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثلُه ، وَتلك الأيّام نداولها بَيْنَ الناس ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ منكم شُهَدَاء ، وَاللهُ لا يحبُّ الظالمين ، وَلِيُمَحِّصَ الَّذين آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكافرين . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعلم الصابرين »

* * *

أما بعد ، فإن حادثة فلسطين — إن هي تمت — فضيحة الدهر ، وعار على الانسانية ... ولكنها لن تتمّ بحول الله وقوته ثم بقوة المسلمين . . .

علي الطنطاوي